

كرسي بثلاث أرجل، والرَّجُلُ الرابعة استعِض عنها بكومة من البلاط جَلَسَ عليها «كاتبُ العدل» وأعطى الكرسيَّ السليمَ لزبونَه أبي الحسن. سَخَبَ كاتبُ العدل قلماً عن الطاولة وحركه أمام أنف أبي الحسن بنفاد صبر: «أخي.. آخر كلام عندي مائة وخمسون ليرة، وأنت تُلمي علي ما تريد دون أيَّة إضافات من عندي. اتفقنا؟»

- اتفقنا.. أكتبُ وخلّصني.

«السيد المدير العام لمستشفى الإخاء.. داعيكم أبو الحسن، من مواليد ١٩٤٥، العامل في مصلحة المصاعد التابعة لمستشفاكم الكريم. سيدي المدير: حرصاً مني على المصلحة العامة والأخلاق العامة وددتُ أن أحيطكم علماً بما حدث ليلة ١٤ شباط ١٩٩٦ في المصعد الذي كنتُ موكلأً بخدمته ذلك اليوم.

سيدي المدير:

اعتذر لأنّ تقريرِي هذا سيصلكم متأخراً. فقد ترددتُ طويلاً قبل أن أحزم أمري بعد معرفتي أن سيادتكم تلقيتم تقريراً من ملعونة الوا...»

- يا أخي، عفواً، اتفقنا ألاّ أتدخل. ولكنّ انا كاتب منذ نبتتُ شواريبي، مرّ على رأسي أشكال واللوان. وأنا أدرى منك بالقانون وثغراته. ليس في مصلحتك أبدأ التهجّم والشتم في تقرير رسمي!

- طيب. فهمت. اكتب: «وبعد أن علمتُ مؤخراً أنّ سيادتكم تلقى تقريراً من الممرضة إنعام سليمان ادّعتُ فيه أنّي أتدخل في شؤون لا تعنيني، وأنّني أخلُّ بقواعد الآداب والسلوك في الأماكن العامة والرسمية، وأنّني أتحرّش بها دائماً، فقد رأيتُ أنّ من واجبي تصحيح وجهة نظركم...»

- يا سيد أبي حسن.. لا يجوز مخاطبة رئيسك في العمل بهذه اللّهجة: «تصحيح وجهة نظركم!» كأنكم تلعبون الشيش بيش معاً، والله!

- طيب اكتب: «أه.. رأيت أنّ من واجبي تصحيح المعلومات التي نقلتها إلى حضرتكم الممرضة المذكورة أملاً في عطفكم وتجاوبكم.

الحقيقة يا سيدي المدير أنّ ما حدث في ليلة ١٤ شباط كان نتيجةً لنفاد صبري مع تلك المخلوقة. فقد سبق وحذرتُها ونصحتها، ولكنّ كان لها أذنًا من طين وأذنًا من عجين. تصوّر يا سيدي، جعلتني فرجةً، ولم ترع شيبتي لجرّد أنّني همستُ لها مرّةً بعدة كلمات في أذنها أحذرها من الوقوع في حبال ذلك النوع من الشبّان. تصوّر يا سيدي المدير، اتهمتني بمغازلتها، وبأنّني كنتُ أنهيها عن علاقتها بذلك الشاب لأحصل عليها لنفسِي! تصوّر.. أبو الحسن العجوز! سنّي لا تسمع، وعندي زوجتان والحمد لله، ومريض بالسكري أيضاً، أبعد الله عنكم وعن عائلتكم الكريمة شرّ المرض.

يا سيدي، أنا أخدم في مستشفاكم الكريم منذ عشرين سنة. مرّ على هذا الرأس أشكال واللوان... من نظرة واحدة إلى عيني المرأة أعرف حقيقتها. وبصراحة لم تعجبني تلك البنت منذ أوّل مرّة جاءت فيها مع أخيها للتسجيل في مدرسة التمريض. تصوّر يا سيدي تعرّفتُ على أخيها، وضيّفته سيفن أب، ومع ذلك ظلّت تمرّ من جانبي دون أن تلمحني وكأنّني قشرة بصلّة. لم تدعني مرّةً واحدةً لشرب كأس منة مثل...»

- يا سيد أبي حسن.. يا أخي.. يا أخي.. ليس لصالحك ذكر «المنة» الزفت. بالعكس المدير سيحترمها أكثر منك لأنّها ستظهر مهتمةً بشغلها وأنت لا. أصلاً شرب المنّة ممنوع في الدوائر الحكومية!

♦ - كاتبة شابة من سوريا، تعيش في الولايات المتحدة.

- صحيح، صحيح، اشطبُ اشطبُ. اكتب: «وأنا رجل أتمتع بروح الفكاهة. فكنْتُ كلُّما مرّت بجانبني أرميها بكلمة أو كلمتين من باب المزاح طبعاً، وكانت تردّ على مزاحي بنظرات استهزاء وتعالٍ وكأنتني ابن سبعة وهي ابنة تسعة. أتعجب، يا رجل، كيف يُنسى [هنا يتوقّف كاتبُ العدل عن الكتابة مبجلقاً بغيظٍ في شفّتي أبي الحسن] الإنسانُ بسرعةٍ أصله وفصله بمجرد حصوله على وظيفة معتبرة أكثر منك...»

- أبو الحسن، أريد أن أسالك سؤالاً قبل أن تُكلم.

- تفضّل!

- هل المدير صديقك؟ يعني، هل صحّ لك مرّة أن تتحدّث إليه وجهاً لوجه؟

- يا حسرة، جراح مشهور مثله ومدير عام لمستشفى طويل وعريض سيتنازل لمستوى أبي الحسن؟ هل تمزح يا رجل؟!

- طيّب، كيف تُسمّع لنفسك بمخاطبته بهذه الطريقة: «يا رجل؟» يا رجل ويا بطيخ؟

- واللّه صحيح، أشطب الكلام الأخير، رحم الله والديك. اكتب: «لا بد أن حضرتكم تعرّفتم إلى شكلها وتوافقوني على أنّها لا تحرك شعرة في رأس صبيّ، فكيف ستحرك شعرة رأس رجل عجوز مثلي؟ ولكن، كما يقول المثل، إذا رأى الجمل حديثه وقع وانكسرت رقبته. المهم يا سيدي، كان كلّ همّي أن تصون سمعتها وألا تختلط بمن هبّ وذبّ من الأوامد. وكنْتُ أظنُّ أنّي أوّدي واجبي بنصّحها وهدايتها أمام ضميمري وأمام اللّه سبحانه وتعالى. ولم أتخيّل أنّ النتيجة ستكون مقلوبة، وأنّها ستسبّقني برفع تقرير إلى سيادتكم عن سلوكي...»

- كلمة «تسبّقني» لا تعجّبني هنا يا أبا الحسن، لأنّها ستشكك المدير في أمرك. استبدّلها بعبارة «سترفع تقريراً» والسلام..

- «وأنّها سترفع تقريراً إلى سيادتكم تدّعي فيها زيفاً وبهتاناً أنّي كنتُ الاحقها لمقاصد غير شريفة. ولكن، يا سيدي، ألن يندفع الدم إلى جمجمتك إذا رأيت واحدة من بنات الحلال اللواتي أوصانا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحفظهن وإبعادهن عن طريق الخطيئة بالكلمة، وإن لم يرتدعن فبالضرب، وإن لم يرتدعن فبإقامة الحدّ عليهن، وإن لم يرتدعن فبالرجم... أين كنّا - نعم.. تجالس شاباً وحده اللّه عليمٌ بحسبه ونسبه ودينه. كلّ يوم، مثل الدواء، صباح مساء، في الصعود والهبوط، قبل الدوام وبعد الدوام، يأتي ذلك السافلُ يرنّ جرس غرفتها وينتظرها. أخيراً لم أعد أطيق الصبر. رأيت أنّ من واجبي إعلام إخوتها في الضيعة، فتكبدتُ عناء السفر وأجرة الطريق، وأطلعتهم على الحال، وكلّ ظنّي أنّ النخوة والشهامة ستجعلانهم يهبّون مثل الريح ويقتلعونها من شعرها من دمشق ويجرجرونها أمامهم مثل الكلبة إلى...»

- يا سيد أبو الحسن، اللّه يحرسك، لا يجوز استخدام هذه التعبيرات النابية في تقرير.

- رسمي.. فهمنا يا رجل، يقف شعراً بدني كلُّما تذكرتُ تلك المخلوقة.. اكتب: «ولكنّ ماذا تقول في هذا الجيل الذي انعدمت عنده الكرامة والنخوة وعزّة النفس؟ لم يُشَفِّ غليلي واحدٌ من إخوتها الثلاثة، وأمام تنبلة إخوتها ونذاتهم...»

- ماذا قلنا؟ أمام تقاعس إخوتها.

- «وأمام تقاعس إخوتها قلتُ لنفسي، يا سيدي المدير، انتهينا يا ولد، لا تحشُر نفسك في ما لا يعنيك كي لا تسمع وترى ما لا يرضيك. إذا الإخوة لم يهتموا فلماذا تهتم أنت؟ هكذا قلتُ لنفسي. ولكن، يا سيدي، كأنّ جمرة كانت تكوي أحشائي كلُّما رأيتهما معاً. كانت أطرافي ترتجف، ويقشعر شعري بدني، وتحمّر عينايا. ومرّة لكزني أحد الزوّار بمرفقه بكلّ وقاحة، وتولّى بنفسه الكبس على أزرار الطوابق لأنني كنتُ غافلاً؛ لم أستطع رفع عيني عنهما. استهتار تلك المخلوقة كان يجنّني. كانت معه، يشربان المتّة على درج الطابق الخامس...»

- أحسنت - زعق كاتب العدل وضرب بقبضته على الطاولة - أصببتها في الصميم.. شربُ مئة، وتسامرُ على الأدرج في وضح النهار أمام الداخلين والخارجين..

- «نعم وأكثر من ذلك كانوا يقصدون إزعاجي بتبادل النظرات والمواعيد علناً أمام باب المصعد، أمام خلقتي مباشرة. تقول هي: 'بكر الساعه السابعة مساءً'، ويردّ الملعون: 'على درج الطابق الخامس'...»

- أبو حسن.. اسمع. ما رأيك لو غيّرت الوقت إلى الواحدة ليلاً؟ إنه تغيير بسيط في وقائع الجريمة، لكنه لصالح قضيتك..

- غيّر، غيّر. «إي والله يردّ الملعون: 'في الساعه الواحدة ليلاً ساكون بانتظارك على نرج الطابق الخامس'...»

- أبو حسن.. دعنا نكتب: 'تحت الدرج' لأن..

- آخ. لو أستطيع أن أطولها لقطع لحمها بأسناني.. نعم، اشطب «على» واكتب «تحت الدرج».

«ولولا قدرة الرحمن لما احتمل مريضٌ بالسكري مثلي الإحساس بتلك المغازلات والإثارات الحيوانية...»

- أبو حسن، دعنا نكتب: «لما احتمل مريضٌ مثلي رؤية تلك المغازلات.» فهناك فرقٌ بين أن ترى ولا تحتمل، وبين أن تحسّ ولا تحتمل.

- يشهد الله أنني عرفت من أختار. أكتب: «وبما أن حضرتكم رجل مثلي يفهم ويقدر مشاعر الرجل، فسأعترف لك بأن مشكلتي مع تلك المخلوقة تعدت حدود المستشفى والعمل ولاحتقتني إلى بيتي. فصرت كلّمًا وضعت رأسي على المخذة لأنام أتصورها واقفة أمامي. لم أجرب الكره في حياتي مثلما جربته معها. هل تصدّق سيادتكم أنني دخلتُ مرةً إلى الحمام وإذ بي أراها واقفةً أمامي، شعرها مبعثر، وصدرها بارز، وصارت تقترب مني بهدوء وأنا أترجع أمامها إلى الخلف، حتى اصطدم رأسي بباب الحمام، فزاع بصري ووقعت على الأرض، وحين فتحتُ عيني كانت قد تبخرت؟ لم أصدّق أن أبا حسن يخاف إلا بعد أن مررتُ يدي على رأسي وشعرتُ بلزوجة الدم وسخونته. سيدي.. منذ يومين فقط كنتُ في المحكمة على بعد خطوتين مما أقف الآن. طلّقتُ إحدى زوجتي، وحكّم القاضي عليّ بدفع نفقة شهرية تعادل ثلث مرتبي. هل يرضيكم أن يتكبّد موظفٌ مسكين مثلي كل هذه الأضرار يا سيدي؟ طلّقتها، وتحملتُ نل الحكم لأنني لا أستطيع فتح فمي لأدافع بكلمة واحدة عن نفسي. ماذا كنتُ سأقول لحضرة القاضي: طلّقتُ المرأة لأنني عجزتُ عن معاشرتها مثل الأوام؟ نعم يا سيدي المدير، عجزتُ. كانت تلك المخلوقة تقف مثل الحائط بيننا؛ كلّمًا اقتربتُ من زوجتي كنتُ...»

- ولكن لماذا؟

- أرجوك لا تتدخل في هذه اللحظة بالذات، سأخرج هذه العلقه من صدري وأستريح. مفهوم..؟ «كنتُ أحسّ بأظافرها تكشط ظهري وعنقي وفخذي. ووقعتُ يا سيدي مرتين مغشياً عليّ من الضحك، ولم أستطع المتابعة. وكلّمًا استعدتُ بالرحمن وحاولتُ من جديد كانت تتلبّس جسدي زوجتي مرةً أخرى. النظرة نفسها والشعر نفسه والأصابع نفسها التي رأيتهَا عشرات المرّات تمتدّ بكؤوس المته إلى فم ذلك الفاسق حبيبها. وأخر مرةً يا سيدي أمرتني زوجتي أن أركع على ركبتي، ففعلتُ، ففقرتُ فوقي كأنها تمتطي دابة، وصارت تلتكنني في خاصرتي بقدميها، وتصرخ بدلال: 'حا.. حا..! وأنا أطاوعها، حتى خرجنا من الغرفة. كنتُ عارياً وهي فوقي. وحين سألت شتيمه زوجتي الأولى في أذني مثل الزيت الحار أفقتُ، ونبضتُ زوجتي الثانية عن ظهري، ولاحتقتها في أركان البيت كي أضربها، لكنها كانت تتصرّع وتصرخ قائلةً إنني أنا الذي أمرتها أن تفعل ذلك وأنها أطاعتني فحسب. بعد ذلك اليوم لم يهدأ لي جفن، ولم أعد أطيق النظر في وجوه أولادي وزوجتي الأولى أو وجوه جيراني. ذهبتُ إلى الشيخ ملحم وطلبتُ مشورته فقال لي: 'أكثر من الصلاة والوضوء، واستغفر الله، فإن النفس أمارة بالسوء'. حرقتُ بدني لكثرة ما توضّأت، واهترأت ركبتي لكثرة ما ركعت، دون أن أجد الراحة والسكينة مثلما أخبرني

الشيخ. ينسئ من عيشتي يا سيدي، وقررت اللجوء إلى المنجمن والعرفان الذين اكدوا جميعاً أن جسد تلك المخلوقة يسكنه جن واقع في حبها، وأنه يغار عليها من النسيم وطيور السماء إذا مرت من أمامها. وسألتهم: 'ولكن ما دخلي أنا، ولماذا اختار الجن تعذيبي؟' فلم يجيبوني. أعطوني تحاويطهم وتعاويذهم وأعشاباً ورؤوس سحالي مجففة لأشرب مناقيعها. ارتاح ضميري قليلاً حين طلقت زوجتي الأولى، التي كانت شابة ولها حقوقها كما تعلم يا سيدي، ولكنني انكسرت إلى الأبد. يا سيدي من يعوض رجولتي المهذورة؟ سيدي المدير، أنا أعرف بالضبط ما لفقتك تلك الممرضة في تقريرها، ولكنني أريدكم أن تصدقوا أن كبريائي الجريح أفقدني صبري في تلك الليلة، ليلة ١٤ شباط. فبعد أن نظمت الركاب جيداً داخل المصعد، وأبعدت قدمي عن حافة بابه كي ننطق، سمعت ضحكها من الخارج، وتخيلت أنها تركض باتجاه المصعد وتطلب إيقافه. قد يخطر لك يا سيدي أن كرهني لها دفعني إلى متابعة طريقي وكأنني لم اسمعها، ولكن واجبي منعني. تصوّر، حضرتك، بماذا قابلت كرمي؟ عندما لمحتني تراجعاً وكأنها رأت عقرباً، وخمن ماذا كانت تحمل في يدها؟ وردة حمراء! وردة جورية حمراء! اندفع الدم إلى رأسي، وارتخت ساقني التي كانت تسد باب المصعد، ولم أستطع السيطرة، فانطلق الباب وكاد يطبق على رجلي لولا أن أحد أولاد الحلال سحبني بسرعة إلى الداخل. ما هذه الواقعة هل انقطع الرجال من حولك يا ابنة الخائنة حتى تُهدين ذلك النغل..»

- احذري.. كنا نمشي تمام، والآن أفسدتها.

- «ما هذه الواقعة، قلت لنفسي يا سيدي المدير، أفتح لها الباب - أنا الرجل المريض - وهي تتعجج وترفض الدخول؟ شتمتها يا سيدي الشتيمة التي يجربها قلبك..»

- يا رجل هل تريد أن يقلبها المدير فوق رأسك؟ في كل الأحوال أنت مجرد موظف صغير يقود مصعد المستشفى، وهي ممرضة لها وزنها..

- «شتمها أحد الركاب يا سيدي.. الرجل كانت له عينان تريان وأذنان تسمعان. تعاطف معي. تصوّر، الغريب الذي لا يعرفني تعاطف معي. وتابعتنا طريقنا ودمي يغلي في عروقي. وحوالي الساعة السابعة، أي وقت انتهاء دوامها في قسم العظمية، كانت تقف مع مجموعة من زميلاتها ينتظرن المصعد. لم تكن قد حلت مياومتي، ولكن أبا سليم كان غائبا، فأخذت مكانه. ولما رأتني ارتدت إلى الخلف مثل المرة الأولى، وأخذت تصعد الدرج، فأردت إدخالها إلى المصعد لكي نتفاهم. كان المصعد خالياً و...»

- لقد جعلتني أكتب أن زميلاتها كن يملأن المصعد..

- نعم ولكن.. نسيت. لم أعد أتذكر. كل ما أتذكره أنني هجمت عليها. وحين لمست خصرها زعقت زعقة عالية كادت تُفقدني صوابي وكدت أقع. فهجمت عليها مرة ثانية لكي أسكتها كي لا تكبر المسألة، وخاصة أن بعض الرؤوس بدأت تتجمع على رأس الدرج فوقنا. و.. لم أتمالك نفسي حين رأيت العيون تحدق إلي باستنكار كأنني مجرم، بينما كانوا ينظرون إليها كأنها ضحية، وهي التي دمّرت حياتي، وجعلتني أخسر أولادي وزوجتي وشغلي دون أن يرف لها جفن.. دون أن يخطر لها كم أتعذب لأحظى بنظرة واحدة من وجهها ال...»

- أبو حسن، لا أريد منك المائة وخمسين ليرة. المسألة صارت مسألة كرامة وشرف. أنت رجل مهزوم، وأنا سأعرف كيف أخذ لك بالثار.



تمايل الكرسي من تحته وكادت البلاطة العليا تنزلق من مكانها. استبدل قلمه بريشة استلها من الدرج وأغمدتها في الحبر، ثم شرع يكتب كل شيء منذ البداية.

لوس أنجلوس